المحاضرة 04

النحو والمجاز والإبداع

نعالج في هذه المحاضرة علاقة النحو بالاتساع في المعنى هل يمنح المتكلم حرية التصرف في اللغة أم هل يقيّده في بناء جمله بنظام اللغة الصارم.

أولا: النحو والمعيار والإبداع :

يقول الشاعر كثيّر عزة:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ *** إليَّ، وما تَدرِي بِذَاكَ القَصائِرُ

عَنِيتُ قَصِيرات الحِجَالِ ولمْ أُرِدْ *** قِصَارَ الخُطَا. **شَرُّ النِّسَاءِ البَحَاتِرُ**

شرح :

قصيراتُ الحجال: النساء اللواتي يلزمن بيوتهن ولا يغادرنها إلا لضرورة .

الحجال: البيت الذي يزيّن للعروس..

البُحترُ: القصير.

وللمعنى أن الشاعر يحب في زوجته اقتصارها واستقرارها في خيمتها التي لا تغادرها إلأا للضرورة مما حبّب إليه كل من يفعلن ذلك، مع تأكيده أنه لا يقصد قصار القامة في كلامه.

ناقشة :

يجيز النحويون هنا كون الأول مبتدأ والثاني خبر(شرّ النساءِ البحاترُ)، والأصل

البحاترُ: مبتدأ.

شرُّ: خبر مرفوع، النساء: مضاف إليه.

وكلّ الخلاف قائم على ضمير الفصل المحذوف (هنّ) وذكره أولى من حذفه لئلا يتوهم السامع أن الإسناد غير تام، فيرى أن (شر النساء) مبتدأ و(البحاترُ) وصف له والكلام حينها يعوزه الإخبار .

ولو لا أنّ السياق يدل على الإخبار لقال القائل إنّ الجملة غير تامّة .. فلو قلنا على سبيل التمثيل: زيدٌ الطيّب سينتظر السامع تتمة الكلام، والمعنى أن التعريف في (الطيب) هنا للإخبار لا الوصف وهو للحصر لا غير.

فكأنما قيل: زيد هو الطيب لا غير، وهو الذي قصده الشاعر في البيت ... وكان يزول هذا التمحل في توجيه الإعراب لو فصل بين المبتدأ والخبر ضمير ... فليس غريبا أن النحاة سموه (ضمير الفصل (للتمييز (الفصل) بين الخبر من التابع كالبدل والنعت ... وبذكره لا يصح إلا أن يكون الأول في الإسناد مبتدأ والثاني بعد الفصل خبرا سواء أكان لضمير الفصل محل

من الإعراب (مبتدأ ثان) أو لم يكن له محل على قول آخر ... بقي أن نشير إلى أنّ الإعرابين المذكورين أعلاه جائزان **لاستواء التعريف** ... فإن أحدهما معرّف بالإضافة والثاني بلام الاستغراق، والاستواء **في التعريف** **وذن بأن نجعل أيهما شئنا بتدأ والآخر خبرا** ... أمّا أنّ مسألة أيّ التعريفين أقوى آلتخصيص بالإضافة أم الاستغراق؟ فنقاش أشبه بفلسفة النحو لا وظيفته.

• **المعيار والمجاز**: من أسباب اتساع اللغة العربية العلاقة الفاعلة بين البلاغة والنحو عموما، وبين النحو والمجاز خصوصا، ويتبدى ذلك من خلال الصور التعبيرية الكثيرة المكتوبة والمسموعة التي يولدها المبدع استنادا للعرف الفني الجماعي، واستغلال إبداعات اللغة.

والبلاغة رغم استقلالها الاصطلاحي، لم تكن إلا منهجا وجزءا لا يتجزأ من النحو، لاشتراكها في الاحتفاظ بالأصول، والاهتمام بكشف المعاني، وتأثيرها في الألفاظ، وبيان ملامح الحسن والجمال التي بدت واضحة عند بعض النحويين في مصنفاتهم، وعند المشتغلين بالتفسير، والمتكلمين الأوائل في إعجاز القرآن، والدارسين للشعر والنثر والخطابة، يقول السيوطي[23]:

«كان مبتدأ الأمر أن هذا الرجل المذكور، قال لي: إن قوما من نحويّ (سرقسطة) اختلفوا في قول كثيّر:

وَأَنْت التي حَبَّبْتِ كُـلَّ قصيـرةٍ إليَّ وما تَدْري بذاك القَصَائرُ
عَنَيْتُ قصيراتِ الحجالِ ولم أُرِدْ قِصَارَ الخُطا شرُّ النساء لبحاترُ

فقال بعضهم: (البحاتر) مبتدأ، و(شر النساء) خبره.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون (شر النساء) هو المبتدأ و(البحاتر) خبره، وأنكرت أنا هذا القول، وقلت: لا يجوز إلا أن يكون (البحاتر) هو المبتدأ و(شر النساء) هو الخبر، فقلت له: الذي قلت هو الوجه المختار، وما قال النحوي الذي حكيت عنه جائز غير ممتنع، فقال: وكيف يصح ما قال؟ وهل غرض الشاعر إلا أن يخبر أن (البحاتر شرّ النساء)، وجعل يكثر من ذكر الموضوع والمحمول، ويورد الألفاظ المنطقية التي يستعملها أهل البرهان؟ فقلت له: أنت تريد أن تدخل صناعة

23 - الأشباه والنظائر في النحو، 5 / 180-181.

ثانيا: الحقيقة والمجاز في صلتها بالنحو :

الحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعت له أصل الوضع ، أ**ما المجاز** فما تجاوز ذلك إلى استعمال آخر في غير موضعه الأصلي .

والمعيار المحدد لكل ذلك هو القرينة .

القرينة أنواع لغوية تتحدّد من السياق التركيبي للجملة ، أو معنوية فتكون إما عقلية أو حالية .

ومن المجاز إسناد الفاعل على غير فاعله نحو قوله تعالى :

والمجاز نوعان: عقلي، ولغوي.

.1المجاز العقلي: وهو الذي يكون في الإسناد، أي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له بتأويل، نحو:

قوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا)يوسف 28، أي اسأل أهل القرية، وقوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ.

وقولك: جرى النهرُ، وطلعت الشمس.

.2المجاز اللغوي: وهو قسمان: المجاز المرسل، والاستعارة.

المجاز المرسل: استعمال اللفظ في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة غير المشابهة، نحو: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) عبّر بالأفئدة عن مجموعة من الناس، وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

- تقسيم المجاز المرسل بحسب علاقته

المسوغ لاستعمال اللفظ لغير معناه الأصلي هو وجود علاقة ما بينهما، وعلاقات المجاز المرسل كثيرة أهمها